

(٥)

المؤمنون بالكواكب!

روى الأئمة البخاري ومسلم ومالك - وغيرهم - عن زيد ابن خالد الجهني أنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ، على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف (يعني سلم من الصلاة) ، أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال (أي قال رسول الله : قال الله عز وجل) : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»^(١).

والمراد بقول الراوي «على إثر سماء» : في أعقاب مطر نزل عليهم في تلك الليلة ، والعرب تقول السماء وتريد بها المطر النازل منها .

(١) في البخاري برقم ٨٤٦ ، وفي مسلم برقم ٧١ ، وفي الموطأ ، الحديث رقم ٨٢٥ ، ط بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤ ، واللفظ هنا للبخاري.

وقد دفع رسول الله ﷺ إلى هذا البيان أن عبد الله بن أبي
- رأس المنافقين - قال لما نزل ذلك المطر: «هذا نوء
الخریف ، مطرنا بالشَّعْرى»^(١). وكانت العرب تنسب المطر
إلى الكواكب في ظهورها في السماء واختفائها منها.

فجاء حديث النبي ﷺ في هذه الحادثة ناقلاً عن رب
العزة - تبارك اسمه - نفى هذا الاعتقاد الجاهلي ، وراداً قول
المنافق الذي يقرره ، ومبيناً كفر من اعتقد أن للنوء (النجم
الساقط أو الطالع) تأثيراً من أي نوع في نزول المطر أو عدم
نزوله ، وأن ذلك كله إنما يعود إلى رحمة الله بالناس وفضله
عليهم .

فمن نسب الفضل في ذلك الخير الذي يصيب الناس
- أي المطر - إلى الله تعالى وحده فهو مؤمن بالله ، سبحانه ،
كافر بما دونه مما ينسب الناس إليه تأثيراً وفعلاً ، من
الكواكب وغيرها . ومن نسب ذلك المطر إلى الكوكب ، الذي
طلع في السماء أو اختفى منها ، فهو كافر بالله تعالى لأنه
ينكر انفراده - سبحانه - بالخلق والأمر والإنشاء .

(١) ابن حجر، فتح الباري، ط الرياض، المجلد ٢، ص ٥٢٤؛ محمد ابن يوسف
الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٧٠.

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (فاطر: ٣) .
 وبقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٣٤) .
 وفي بعض روايات الحديث أن الله - تبارك وتعالى - قال :
 « ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح طائفة منهم بها كافرين . يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . فأما من آمن بي وحَمِدَنِي على سقياي فذاك الذي آمن بي وكفر بالكوكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك الذي كفر بي وآمن بالكوكب » ^(١) وفي رواية ثالثة صحيحة عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أصبح من الناس شاكرون ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا » ^(٢) .

ولهذه الروايات الصحيحة فرَّق العلماء بين من اعتقد أن الكوكب - أي النوء - فاعل مدبر منشئ للمطر ، كما كان

(١) سنن النسائي، ط بيت الأفكار الدولية ١٩٩٩، الحديث رقم ١٥٢٥، وهو نفسه حديث زيد بن خالد الجهني، السالف ذكره، بسند مختلف ولفظ مختلف.

(٢) صحيح مسلم رقم ٧٣.

بعض أهل الجاهلية يزعم ، وبين من اعتقد أن المطر من فضل الله ورحمته ، ولكنه ذكر النوء باعتباره علامة له وميقاتاً ، علي النحو الذي جرت به العادة من معرفة أكثر الناس بمواقيت نزول المطر وعلامات قربيه ، فكأن هذا قال : مطرنا في وقت كذا . فأما الأول - المعتقد أن للنوء تدبيراً وفعلاً - فهو عند العلماء لا شك في كفره . وأما الثاني الذي يعتبر النوء ميقاتاً وعلامة - فهذا ليس بكافر ولكنه مخطئ لاستعماله لفظاً يدور بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائله ، ولأنه كلام من شعار الجاهلية ومن كان على شاكلة أهلها - من مثل المنافق الذي قال مطرنا بالشَّعْرى - فالأولى ترك هذا اللفظ لأنه مكروه . قال الإمام النووي ، في شرح صحيح مسلم : « لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها » . وقال ابن حجر في فتح الباري : « من اعتقد أن ذكر النوء من قبيل التجربة فليس بشرك » ونقل عن الشافعي : أن « من قال مطرنا بنوء كذا وهو يقصد في وقت كذا لا يكفر »^(١) .

ويجوز أن يكون تأويل الحديث أن الكفر المذكور فيه هو كفر النعمة الإلهية - وهذا في حق من لا يعتقد أن التأثير للكوكب - ويدل لصحة هذا التأويل الروايات التي فيها ذكر

(١) فتح الباري ، جلد ٢ ، ص ٥٢٣ و ٥٢٤ .

نعمة الله والكفر بها ، وذكر الشكر والكفر في مقابلته ، لأن هذه العبارات تدل على أن المراد هنا هو كفر النعمة لا كفر الملة . ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول عند نزول المطر : « مطرنا بنوء الفتح » ، ثم يتلو قول الله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (فاطر: ٢) . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر : « وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ ، « مطرنا بفضل الله ورحمته » ^(١) .

فتأمل الفرق بين نسبة المطر إلى رحمة الله ونعمته وفضله ، ونسبته إلى شيء من خلقه ، تعلّم الفرق بين من أخلص دينه لله ومن شابهته فيه شوائب الكفر أو النفاق .

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨٥، جـ ١٦، ص ٢٨٦، وقد ذكر في هذا الموضع سؤال عمر بن الخطاب للعباس عم رسول الله ﷺ عندما استسقى به: « يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا... » قال ابن عبد البر فكان عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر ويؤمل، فسأله عنه: « أخرج أم بقيت منه بقية ». وذكر أن مالك بن أنس كره أن يقول الرجل للغير والسحابة: وما أخلقها للمطر، واستدل بذلك على احتياط العلماء ومنعهم الناس من الكلام بما فيه أدنى تعلق بما كان يقوله أهل الجاهلية .
وانظر: محمد زكريا الكاندهلوي ، أوجز المسالك إلى موطأ مالك ، طبعة مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات، الهند ، ٢٠٠٣ ، جـ ٤ ص ١٦٠ .

وتأمل حِلْمَ رسول الله ﷺ على ذلك المنافق الذي أنكر المعجزة في عودة الماء إلى البئر كثيراً وفيراً بعد أن أوشكت على الجفاف ، ونسب المطر إلى النوء والزمن لا إلى الله وحده ، تَعَلَّمَ كم يبتعد عن الهدى النبوي أولئك الذين يتشددون في غير موضع الشدة ، ويكفرون المؤمنين بالريبة والشك والشبهة ، وينفرون الناس بحملهم قسراً على ما يرونه هم ، ولو كان عارياً عن الدليل خالياً عن الحكمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده !

* * *